بسم الله الرحمن الرحيم

تـــوطـــئه

موضوع هذا البحث (وسائل الإعلام والفصحى المعاصرة) وهو مـــن موضوعات الساعة في الواقع الثقافي العربي الراهن ، فاللغة العربية الفصـــحى لم تشهد في مراحلها المتعاقبة ما تشهده اليوم من تحد ومخاطر ، أســـهمت فيهـــا مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية وفرضت على المهتمين بالعربية الفصحى – والناطقين بها – البحث الجاد والمخلص عن حلول عملية تناسب العصـــر ولا تجافي جمالياتها ومواطن إبداعها ، وذلك ما كان وراء اختيار المجمع لهذا المحـــور إدراكاً منه لهذه الأزمة ومساهمة في اقتراح الحلول الممكنة .

واعترف أن الدعوة التي تلقيتها للمشاركة في كتابة هذا البحث جاءت متأخرة كثيراً ، و لم تتح لي من الوقت ما يكفي لإعداد بحث في مستوى خطورة الموضوع وأهميته . وبالرغم من ذلك أرجو أن يكون جهدي المتواضـــع هـــذا مساهمة في الإشارة إلى مواطن الخطر واقتراح بعض الحلول التي يمكن لها بالحوار أن تتعمق وتتبلور في صيغة عملية لا أشك في أن جهود زملائي المســـاهمين في هذه الندوة سوف تكمل جوانبها المختلفة وتعطيها ما تستحق مـــن اهتمـــام ، والله ولي التوفيق .

كلية الآداب – جامعة صنعاء

في ٢٧ / ٢ / ٢٠٠١ م

مدخل عام

العربية الفصحى هي اللغة الأم لأبناء الأمة العربية الذين يزيد تعـــدادهم -إذا صدقت الاحصائيات – عن ثلاثمائة مليون يرفدهم أكثر من مليار مســـلم تتطلـــع الغالبيـــة منـــهم إلى دراســـة هـــذه اللغـــة لأنهـــا لغـــة القـــرآن ((والقران هو الإسلام .. وبالتالي حينما وجد الإسلام وجدت معه اللغة العربية لأن القران عربي وصلاة المسلم وعبادته لا تجوز الاَّ بالقرآن العربي . ولا يمكـــن لأي مسلم أن يحفظ القرآن الاَّ إذا عرف اللغة العربية ولو في شـــكل محـــدود وبسيط))[1] وما العاميات المنتشرة في كل قطر من أقطار الأمة العربية الاَّ لهجات متفرعة عن هذه اللغة الفصحى . وبناء الأمة العربية الواحدة وتعزيز التماســـك بين أبنائها لن يتم الاَّ عن طريق هذه اللغة وبوساطتها فهي الحبل السري المـــتين الذي يربط بين أقطارها وأجيالها ، وهي وحدها القادرة على أن تحيل التناقض القائم بين الأمة الواحدة إلى تكامل والتنافر إلى تناغم ولن يتم ذلـــك الاَّ عـــن طريق التعليم من ناحية وباستخدام آليات الإعلام الحديثة ووسائطها المختلفة من ناحية ثانية فاللغة العربية تعيش أزمة حقيقية سواء في الوسائط الإعلاميـــة أو في مؤسسات الدولة العربية .

كما أن التعاون الوثيق بين المؤسسات التعليمية والثقافيـــة والوســـائل الإعلامية من إذاعات وتلفزات عامل حاسم في الحفاظ على اللغة العربية سليمة نقية وفي تمتين علاقة المواطن العربي بلغته أمياً كان أم متعلماً . وهذا يســـتوجب وعياً متبوعاً بالعمل من جهات الاختصاص في الدول العربيـــة وفي مقدمتـــها وزارات الإعلام والثقافة والتربية والتعليم التي يجتمع وزراؤها بين حين وآخر ، ولا يمكن ان تغيب عنهم المشكلات التي تعاني منها اللغة العربية في أقطارهم ولا

الخطر القادم مع عولمة الإعلام التي ستبدأ إن لم تكن قد بدأت . ومهما تكن الملاحظات على وسائل الإعلام والقسوة التي تلقاها من جانب الحريصين على الفصحى فإن هذه الوسائل قد خدمت العربية ووسعت من نشاطها وعززت مكانتها سواءٌ أكان ذلك عن طريق الجريدة أم الإذاعة أم التلفاز .

وفي الوطن العربي الآن عشرات الفضائيات ومثلها الإذاعات ، وما لا يحصى من الصحف والمجلات ، وكلها تكتب وتنطق بالعربية ، الاَّ أن الأمة التي تعاني من التفتت والشتات لا تستثمر الامكانات التي توفرها هذه الوسائل وفقاً للطموح القومي . كما أن المنظمات المعنية كالجامعة العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمجامع العربية والجامعات واتحادات الكتاب والأدباء لا تقوم بدورها على الوجه المطلوب أو أنه لا يتاح لها القيام بدور المتابعة والربط بين الجهود المتعددة لحماية الفصحى وتهميش اللهجات . ولعل أخطر ما تعرض له العرب من تحديات في القرنين الماضيين (التاسع عشر والعشرين) هو ذلك التحدي الذي عانت منه اللغة العربية بوصفها العنصر الأول والمهم بين كل العناصر المكونة للأمم ، فقد أدرك الغزاة الذين طمحوا إلى احتلال الوطن العربي وتمزيق أوصاله أن نجاحهم في هذا يعتمد على ايجاد قطيعة تامة بين العرب ولغتهم الفصحى واستبدال لغات الغزاة أو اللهجات العامية بها . وكادت تلك المحاولات أن تنجح في تحقيق أهدافها نظراً للجهل الذي كان سائداً في معظم الأقطار العربية من جهة ولبطء حركة التحديث الشامل من جهة ثانية. وبوسع الباحث – أي باحث – أن يتتبع انماطاً ونماذج عديدة من المحاولات التي تمت في مصر والشام والمغرب العربي بأقطاره الثلاثة ، تونس والجزائر والمغرب ، حيث نشطت الدعوات الاجنبية في التغريب وسعت إلى الحض على تبني لغة المستعمر جنباً إلى جنب مع احياء اللهجات الميتة كالامازيغية التي يرى عدد من الباحثين العرب والأجانب أنها من بقايا لهجات عربية قديمة .

ومن أهم الباحثين العرب الذين يذهبون إلى أن الأمازيغية بقايا لهجة عربية قديمة الباحث والمؤرخ الجزائري عثمان سعدي الذي يرى (أن كل الدلائل تشير إلى أن البربر عرب في أصولهم وأن اللغة البربرية لهجة من لهجات العربية القديمة وأن كل المتخصصين في الدراسات البربرية اثبتوا أن البربرية واحدة من اللغات السامية العربية القديمة فقد تكون مشتقة من اللغة البونيقية مثلما يرى صراحة المؤرخ الفرنسي للحضارة العربية " غوستاف لوبون " وكل المكتشفات الأثرية المتعلقة بالنقوش والكتابات القديمة أثبتت أن البربر أقرب إلى الحميريين ، وأن هجرات عديدة تمت من الجزيرة العربية إلى شمال أفريقيا ، فالهكسوس مثلاً شعب هاجر من الجزيرة العربية واستقر في مصر في الفترة ما بين ١٧٣٠ و١٥٧٠ قبل الميلاد ، وهي من هذه الهجرات السامية التي سجلها التاريخ . فالمورخ التونسي عثمان الكعاك يرى ((أن البربر قدموا من الجزيرة العربية في زمن لا يقل عن ثلاثين قرناً قبل الميلاد ، وأن الفينيقين اختلطوا بالبربر على طول السواحل الأفريقية المغربية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . ولما كان البونيقيون عرباً من بني كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العاربه القحطانية ، ويؤكد المؤرخون ان مدينة سوسه بتونس بناها العرب القادمون من جنوب الجزيرة العربية ، قبل أربعة آلاف سنة وأعطوها اسم (حضرموت) ويسجل المستشرق الالماني – رولسلر – التشابه بين الآكديه والبربرية)) [٢]

وهذه الحقائق تفضح محاولات التزييف والاحتيال التي دأب عليها الغزاة للتأثير على العقل العربي بهدف الإكثار من الاقليات القومية في الوطن العربي وربطها عن طريق الخوف من الأكثرية – بالمستعمر الذي يبدي استعداده لحمايتها ، ليواصل المطالبة بحقوقها السياسية والثقافية . ويشكو سكان المغرب العربي – الآن – من عمليات ناشطة لتزييف التاريخ تجري في مناطقهم على قدم وساق وربما زادت بعد رحيل الاستعمار عما كانت عليه أثناء وجوده . وهذا

يشير إلى أن الدوائر الاستعمارية حققت بعض النجاح في مسعاها نظراً لتقصير وسائل الإعلام العربية وصمتها الطويل ، يضاف إلى ذلك نشاط أوسع وأشمل يكاد يجتاح الوطن العربي بأقطاره كافة ، ويتجلى في التشكيك المتعمد والمتواصل في قدرة اللغة العربية على مواجهة العصر والتعامل مع متغيراته ويرافق ذلك النشاط المحموم إقبالٌ مبالغ فيه على دراسة اللغات الأجنبية عامة – واللغة الإنجليزية خاصة – انطلاقاً مما يتنبأ به بعض الباحثين عن قرب سيادة اللغة الإنجليزية في زمن العولمة القادم . وقد أثار كتاب (هل تقضي الإنجليزية على اللغات الأخرى ؟) لمؤلفه جوشوا أ . فيشمان قلقاً واسعاً وتساؤلات عديدة بعد أن قامت مجلة " وجهات نظر " بعرضها على صفحاتها. ومما جاء في ذلك العرض أنه (على الرغم من أن اللغة مرادفة للأيديولوجيا أو المصالح القومية إلاَّ أن دور الإنجليزية كواسطة لكل شيء من الديبلوماسية الرفيعة إلى تنظيم المرور الجوي ، تحقق قدراً من الامتيازات للمتحدث بها . وتسهم البلاد التي تتخذ من الإنجليزية لغة أولى لها بحوالي ٤٠% من إجمالي الناتج المحلي العالمي . وأكثر فأكثر يتزايد عدد الشركات التي تجعل من إتقان اللغة الإنجليزية شرطاً ضرورياً للتعيين أو الترقية ، كما يتزايد اعتماد الساسة على مستوى العالم على إتقان الإنجليزية في تحقيق النجاح . وعندما التقى المستشار الألماني المنتخب حديثاً جيرهاردشرودر والرئيس الفرنسي جاك شيراك في سبتمبر لمناقشة مستقبل التعاون لم يتحدثا بالفرنسية أو الألمانية ، بل بالإنجليزية ، والإنجليزية هي اللغة الرسمية للبنك المركزي الأوروبي ، بالرغم من أن المملكة المتحدة لم تنضم إلى الاتحاد النقدي الأوروبي وأن البنك موجود في فرانكفورت ، وان الموظفين الإنجليز فيه لا تتجاوز نسبتهم ١٠% وقد أصبحت هيمنة الإنجليزية مصدر ضيق داخل الاتحاد الأوروبي حتى ان قادة الاتحاد يقدمون الحوافز لطاقم الموظفين لتعلم أي لغة أخرى ..... وانتشار الإنجليزية المطرد يعتبر سبباً ونتيجة في آن واحد

للعولمة .. وهنـــاك بعض العوامل الواضحة بنمو التجارة العالمية والتعاون بـــين الأمم ، واتساع مدى الإعلام الأمريكي بصورة غير مسبوقة وتوســـع شـــبكة الاتصال الإلكتروني التي أتاحها الإنترنت والنفوذ اللغوي للأغـــاني والأزيـــاء والرياضة وأساليب الاستجمام الأمريكية ، وهناك عوامل أخرى ربما بدت أقل وضوحاً ، وإن لم تكن أقل قوة ، مثل اتساع دراسة الإنجليزية فيما وراء البحار والأعداد الضخمة من الطلاب الذين يسافرون إلى الخارج لدراستها في الـــبلاد الناطقة بها . وفي عام ١٩٩٢م التحق نصف الطلبة الأجانب البالغ عددهم أكثر من مليون على مستوى العالم بمعاهد في ستةٍ من البلدان لغتها الأم الإنجليزيـــة : استراليا ، كندا ، ايرلندا ، نيوزيلندا ، والمملكة المتحدة ، والولايـــات المتحـــدة الأمريكية)) [٣]

لقد تعمدت في إطالة المقتبس من العرض المشار إليه للكتاب المثير لنتبين بوضوح المخاطر المتوقعة من العولمة الإعلامية والاقتصادية من جهـــة ، ولكـــي تتوضح من جهة أخرى أبعاد التخطيط الدولي في التآزر القائم بـــين الإعـــلام والاقتصاد في تحقيق النجاح اللغوي ، وهو الأمر المفقود في واقعنـــا العـــربي . وبعض ما ورد في الكتاب قائم على التخمين والافتـــراض لكـــن التخطـــيط المصحوب بالفعل قادر على الوصول إلى الهدف البعيد ، وحـــتى لا تســـتغرقنا أحلام اليقظة ينبغي أن نكون على دراية بكل المنجزات التي تتم علـــى صـــعيد اللغات وما ينالها من حيوية وارتقاء أو ما يحيط بها من انحسار وذبول وأن نتفهم أسباب ذلك ونتائجه .

وإذا كان هناك أشياء تحول دون كونية اللغة الإنجليزية ، رغم النجـــاح الإعلامي الذي حققته فإنه لا شيء يحول دون كونية اللغة العربية التي ارتبطت بالقرآن الكريم وبما له من مكانة وحب في نفوس المسلمين لا في الوطن العـــربي فحسب وإنما في أنحاء العالم ، وهذه الكينونة الواقعية لا تحتاج ســـوى التـــزام

إعلامي عربي وإسلامي ، وفي عصر الفضائيات وحيثما يكون المسلم فإنه سوف يمسك بالمفتاح ويجد نفسه وجهاً لوجه مع اللغة التي يحب . وإذا كانت اللغة الإنجليزية لغة المال والاقتصاد فان اللغة العربية لغة الروح والقلب .

ومن المسلمات التي لا تحتاج إلى دليل أن القرآن الكريم قد حافظ -طوال القرون الماضية - على العربية الفصحى ، وحافظ كذلك على العامية من السقوط في براثن الإقليمية او المحلية و بفضله لم يحدث بينهما - الفصحى واللهجات العامية - ما يعكر الصفو وذلك قبل ان تبدأ الدوائر الاستعمارية نشاطها المريب ، ويبدأ بعض المثقفين العرب الحديث عن سيرورة مماثلة لسيرورة " اللهجات اللاتينية التي كانت منتشرة في أوربا قبل خمسمائة سنه وقد انتهت تلك اللهجات اللاتينية إلى قيام عدد من اللغات الاوروبية الحديثة)) [٤].

وهذا الفهم المغلوط ، والمقارنة الفجة ، والحديث عن التطور السلبي في العلاقة ما بين الفصحى ولهجاتها هو الذي أصاب أستاذنا الجليل الدكتور شكري عياد بالرعب وجعله يصرخ بملء قلبه ((وإني لأربأ بالأمة الإسلامية أن يقولوا كما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه . وأن يناموا على آذانهم ثقة بأن الله جلت قدرته ضمن الحفظ لقرآنه ، مادام القرآن محفوظاً فالعربية محفوظة ، الا فاعلموا ياقوم أن الله قادر ان يحفظ القرآن بغيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، إنما تدعون لتكونوا جديرين أنتم وابناؤكم بحمل ذلك القرآن المجيد)) [٥]

ولا استبعد أن يرى بعض الجهلاء والسذج في هذه الصرخة النابعة من قلب مفكر وأستاذ حريص على لغة القرآن ولغة الأمة وتاريخها وثقافتها ، بعض الجرأة التي تخرج بصاحبها عن اللياقة في الخطاب بدلاً من أن يشاركوه موقفه والخوف على لغة القرآن وأخشى الاَّ يجدوا في هذا القول ما يجعلهم يشعرون بالخطر الحقيقي الذي يهدد الهوية الذاتية والثقافية للأمة ويوشك أن يزحف بأظافره وأسنانه ليقضي على العلاقة الوحيدة الباقية بين أبناء هذه الأمة

التي تنتظر دورها الموعود في دورات التاريخ القادمة .علماً بأن الحقيقة القرآنية تؤكد أن الكتاب المنزل سيظل محفوظاً بالعرب أو بغيرهم .

الفصحى والوجه الإيجابي من الإعلام

نستطيع القول إن هذا زمن الإعلام بلا منازع أو منافس ، حيث تلعب وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة دوراً مركزياً مدهشاً ومثيراً ، وهو دور ذو شقين اثنين ، أحدهما يقوم على الإبداع والإضافة والإسهام في تطور الوعي البشري وتقديم الإنتاج الخلاق للعلماء والمبدعين ، والآخر يقوم على إغواء الإنسان والعبث بعقله وبوقته وتزييف وعيه ، ولابد أن ننفي عن هذه الوسائل فكرة وجهي العمله ، فالخطاب الإعلامي يستطيع أن يكون بوجه واحد فقط ، وأن يكون وسيلة إيجابية للتوصيل المعرفي والمعلوماتي الجيد عندما يخضع للإشراف الأمين والتسيير الإنساني العلمي والموضوعي الهادف . أو يكون وسيلة سلبية مدمره للإنسان وللغة وللقيم . وقد أثبت الإعلام العربي – حتى الآن – جوانب قصور كثيره وسلبية منقطعة النظير سنعود إلى الحديث عنها فيما بعد ، لكنه اثبت بالمقابل إيجابيات كثيره من الإنصاف التذكير بها والإشادة بمنجزاتها ومن تلك المنجزات توسيع دائرة الاستخدام اللغوي وجعل اللغة العربية في حالة حضور دائم بعد أن كان الأمر قبل ظهورها مقصوراً على المدرسة والجامعة والجامع ، فضلاً عما أضافه وابتدعه من أنساق فنية وأدبية تختلف عن الأنساق المعروفة في شكل الكتاب . وهذا الدور يقترن بتأكيد أهمية اللغة كعامل أساسي اجتماعي وسياسي وفكري وفني . وهذا التطوير لأساليب استخدامات اللغة سوف يفضي حتماً إلى العناية بها والاحتكام إلى قواعدها الضابطة لفن الكلام . يضاف إلى ذلك فتح أبواب جديدة لم تكن في الحسبان لعملية إنتاج اللغة ونشرها عن طريق الخطاب الشفهي بما أكسب اللغة حيوية

التلاقي والتصادم مع مستويات مختلفة من المتكلمين والموضوعات منـــها الأدبي والعلمي والسياسي والفني والرياضي المؤسسي والحر . وبذلك تؤكـــد اللغـــة الفصحى استجابتها التامة وقدرتها على استيعاب المصطلحات والمعاني وتوصيلها بوضوح ، وفي صياغات متنوعة مما أكسب اللغة ثراء لم تكن تحلم به خـــارج التأليف والمحاضرات والخطب . وفي هذا الصدد لا يغيب عن البال مـــا لهـــذه القنوات من ميزة فريدة في تقديم برامج الأطفال الدرامية بالفصحى مما يجعـــل الطفل ينشأ وهو على صلة بالصورة الأصح والأفصح للغته الأم .

يضاف إلى ما سبق – وهو الأهم – أن اللغة عن طريق آليات الإعـــلام الحديثة تستطيع أن تشكل مدارس أو جامعات مفتوحة سيكون لهـــا دورهـــا وإسهاماتها في تعليم الملايين سواء أكان ذلك داخل الوطن العربي أم خارجه بين المـــواطنـــين المهاجرين الذين يعيشون في مناطق أخرى من العالم ولقد تلقيت – وفي غضون عامين اثنين من انتشار الفضائيات العربية – ثلاث رسائل مـــن أصدقاء مهاجرين في ثلاثة أماكن مختلفة هي ألمانيا وفرنسا وكندا وهـــذه هـــي الرسائل الثلاث أضعها بين يدي القارئ ليدرك أبعاد الأثر الإيجابي الذي تتركه الفضائيات العربية التي أزعم أنها من أهم الوسائل الإعلامية وأكثرها حضوراً في حياة المواطن العربي ، علماً بأنها لم تستكمل انتشارها بعد بما فيه الكفاية نظـــراً لارتفاع أسعار أجهزتها ولما تعانيه غالبية سكان الوطن العربي من بؤس وفقـــر ، وهذه هي الرسائل الثلاث بعد حذف الديباجة :

١– رسالة من كندا :

((شاهدناك في قناة الجزيرة في برنامج " ضيف وقضية " أنـــا والأولاد الذين كانوا سعداء جداً لرؤيتك . وللعلم أن الأولاد هم من أبلغنا عن موعـــد اللقاء وذلك من خلال مشاهدتهم لقناة الجزيرة .

وبالمناسبة أصبحت القنوات العربية تمثل جسراً بين الوطن والمغتـــرب . ونحن هنا نشجع الأولاد على مشاهدة القنوات العربية في الوقـــت المخصـــص لمشاهدة التلفزيون لأننا أحسسنا أن مشاهدة هذه القنوات يعمل على ردهم إلى لغتهم العربيـــة بعد أن كان الخوف من نسيانهم لها يقض مضجعي ومضـــجع أمهم ، فكما تعلمون أن الأولاد يقضون معظم ساعات اليـــوم في المدرســـة لا يتحدثون إلاَّ بالإنجليزية مع أساتذتهم وأقرانهم ، حتى عند عودتهم إلى المنـــزل. كانت الإنجليزية تزحف شيئا فشيئا إلى أن غدت السائدة في حوارهم في أثنـــاء لعبهم ومذاكرتهم وكذلك أثناء الطعام . وكثيراً ما كنا .. ولا نزال .. نعنفهم ونصر على استخدامهم اللغة العربية في المنـــزل ، ولكن ما إن يخلوا إلى أنفسهم في المنـــزل حتى تخالهم كنديين خلصاً .

الآن تغمرنا سعادة أن الأولاد قد بدأت تستهويهم هـــذه الفضـــائيات وبدءوا يشغفون حباً لبعض برامجها . فلقد بدأت أنا وأمهم نلاحظ أن العربيـــة أخذت تبرز في لعبهم وشجارهم ومذاكرتهم . وأعتقـــد أن الفضـــل في هـــذا التحول الإيجابي يعود لهذه القنوات العربية التي لم نكن نتخيل أنه سيكون لها هذا الأثر البديع في لغة أولادنا ، فقد حركت عربيتهم المنحسرة في كلامهم وبدأت تغذينا وأصبحنا نطرب لسماع اللغة العربية من أفواه أبنائنا ...

حفظكم الله تعالى لنا جميعاً وحفظ لغتنا العربية وصانها من كل مكروه))

٢- رسالة من ألمانيا :

((اسمحوا لي أن أحيطكم علماً بأن وصول الفضـــائيات العربيـــة إلى الغرب قد مثل تواصلاً لكثير من الأسر العربية المهاجرة بلغتهم وثقافتهم وقـــد كانت قاب قوسين أو أدنى من الانسلاخ من الهوية العربية نتيجة عدم ممارســـة اللغة العربية في أرض المهجر . كما أن هذه الفضائيات رغم كثرة الغث فيهـــا

وقلة السمين قد جاءت لتساعد الكثير منا على استعادة هويتهم وثقافتهم العربية .

ودعوني أصدقكم القول أنني وسط زحمة الحياة هنا في الغرب كانت تمر عليّ أيامٌ وأسابيع لا أتحدث فيها بالعربية إلاَّ فيما ندر حتى ساق الله إلينا هذه الفضائيات التي أعادت الجسور بيننا وبين أمتنا ولغتنا العربية ، فعبر هذه الفضائيات أستفيد أنا وأبنائي وبناتي في إستعادة وتنمية مخزوننا اللغوي .

لقد أخبرتكم في رسائل سابقة أن لغة أولادي هنا خليط من الألمانية والإنجليزية والتركية ، لأنهم يدرسون في مدرسة تحتضن دارسين هنوداً وألماناً وأتراكاً وغيرهم .. نتمنى عليكم أنتم وغيركم من أعلام الوطن العربي أن تضاعفوا جهودكم في سبيل انتشار لغة الضاد ، كما نتمنى على حكوماتنا العربية أن تعطي اللغة ما تستحق من اهتمام ...))

٣- رسالة من فرنسا :

((...مضت علينا سنون هنا في فرنسا نشتاق فيها إلى سماع أي برنامج عربي قيماً كان أو حتى عادياً ، وأذكر أن بعض الأسر العربية المهاجرة كانت تطلب من ذويها في الوطن العربي إرسال برامج تلفزيونية مسجلة على كاسيت تطلع من خلالها على جديد الوطن .

اليوم وبفضل التقدم المعلوماتي أصبح المغترب يطالع صباح مساء أحوال بلده والمنطقة العربية بشكل عام ، كما أصبح يسيراً علينا مشاهدة البرامج واللقاءات الأدبية التي أحبها . وتلعب هذه الفضائيات من الخوف من نسيان أطفالنا لغتهم الأم ، فالأفلام الكرتونية وغير ذلك من برامج الأطفال التي تذيعها كثير من الفضائيات العربية أفادت الأطفال حيث اصبح من المألوف اليوم سماع أطفال يتنقلون بين الفرنسية والعربية بشكل ملفت للنظر ونؤمل أن يأتي اليوم الذي يتحدث فيه أطفالنا العربية دون صعوبة .))

ألا تؤكد هذه الرسائل الثلاث قدرة الفضائيات العربيـــة واســـتطاعتها توصيل اللغة العربية عبر الفضاء الرحب إلى أي مكان من العالم ؟ ثم الا تستطيع – أي الفضائيات – أن تكون في الحاضر والمستقبل وسيلة التواصل التي لا يكتفي المهاجر العربي معها ومن خلالها من متابعة أحداث وطنه وحسب بـــل متابعـــة ثقافته العربية والمحافظة على أهم مكونات هويته القومية ؟ وتبقى الإجابة رهـــن التطورات والإجراءات التي تتخذها الأنظمة العربية تجاه الدور الذي ينبغي على هذه الاجهزة ان تقوم به إلى جانب دورها الدعائي الإعلامي . ومـــن هـــذا المنظور إلى دور الفضائيات العربية يمكن تصور تأثيرها الفعال على غير الناطقين بالعربية وذلك حين يحسن القائمون عليها الاختيار للبرامج والمعلومات وعنـــد الانتباه إلى ما تمتلكه هذه الآلة الإعلامية من إمكانات وقدرات توصيليه هائلـــة وعلى جانب كبير من الأهمية في مجال استخدام اللغة العربية الفصحى واستقامة أدائها بوصفها اداة اتصال شفهي لا كتابي وما تفرضه الصلة الشـــفاهيه مـــن معايير خاصة في التلقي المباشر .

ويمكن القول أنه بفضل الوسائل الإعلامية الأخرى كالمـــذياع مـــثلاً ، –وهو حتى الآن ذو أثر كبير بسبب سعة انتشاره لسهولة اقتنائه ويسر تنقله – لم تعد العاميات وحدها هي أداة التخاطب بين العامة في المدن والاريـــاف فقـــد أضافت إليها الفصحى مئات المفردات التي لم تكن متداولة ولعبـــت نشـــرات الأخبار والأحاديث الدينية والسياسية دوراً غير محدود في تفصيح العامية إذا جاز التعبير ، ولي مع عامية الريف اليمني محاولة بدأت منذ أواخر السبعينيات عندما بدأت تدريس الأدب الشعبي في كلية الآداب جامعة صنعاء فقد تبدى الفـــارق واضحاً في مستوى القصائد الشعبية المرتبطة بالمناسبات قبل البـــث الإذاعـــي وانتشار أجهزة المذياع ومستوى هذا النوع من القصائد بعد البـــث الإذاعـــي وتوسع استخدام المذياع في الريف ، وعلى رأس كل خمسة أعوام – وهي فترة

قصيرة نسبياً – أقوم بزيارة عدد من المناطق والتقي بعدد من الشعراء الشعبيين للتأكد من وجهة النظر هذه فاكتشف أن الفصحى قد أخذت مساحة أوسع في قصائد هؤلاء الشعراء . وتتعدى هذه الحالة الشعراء إلى غيرهم من الناس العاديين الذين صاروا يتحدثون في قضايا السياسة ويجيدون شرح المتاعب التي يعانون منها بلغة لعب المذياع كما لعب التلفاز فيها دوراً لا يمكن تجاهله .

وفي جهدي المتواضع محاولة لأعداد دراسة مطولة تقارن بين ما كانت عليه مفردات القصيدة العامية (الشعبية) في ريف اليمن في بداية القرن العشرين وما صارت إليه في أواخر ذلك القرن . والأجزاء الأولى من الدراسة تثبت الأثر الكبير الذي أحدثته وسائل الإعلام المختلفة في القصيدة العامية التي تفصَّحت في كثير من مناطق اليمن و لم يعد بينها وبين القصيدة الفصحى من فوارق تذكر سوى ابتعادها عن قواعد الإعراب ، أما المفردات فقد صارت فصيحة تماما باستثناءات لا تكاد تذكر لمفردات محلية يحرص الشاعر على الإبقاء عليها لما قد تحمله من دلالات ذات حضور في ذهن المتلقي أو تكتنزه من معان هازلة أو ساخرة .

ولا أظن أن الواقع اللغوي في بقية الأقطار العربية يختلف عما عليه الحال في اليمن ، وهو – بفضل الجهد المحدود وغير المخطط له من الوسائل الإعلامية – يمضي عكس الاتجاه الذي أراده أعداء اللغة العربية . ولا ننسى ان الأثر الإيجا بي لهذه الوسائل مدعوم ومسنود بالمدارس وبالتوسع في التعليم الإلزامي وحصول التلاميذ في هذه المدارس على نصيب وافر من مفردات الفصحى وتراكيبها .

وحيث ان العلاقة بين اللغة والإنسان تنطوي على ثنائية المنفعة فإن احدهما لا يمكن أن يستغني عن الآخر ، والمنفعة هنا ليست مادية وحسب إنما روحية ونفسية وذاتية ، وحرص الإنسان على لغته من المسلمات الاَّ إذا طرأت ظروف قاهرة كما حدث لبعض الاقليات العربية التي خضعت لاحتلال جائر

باعد بينها وبين لغتها القومية وفرض حصاراً على أطفال هذه الاقليات فلا يتكلمون الاً لغته . كما تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى بعض المتعصبين للعامية والمهووسين بالمحافظة على طريقة نطقها وعلى مفرداتها التي هي في الأساس ذات أصول عربية . ان هؤلاء لا يخفون قلقهم من الأثر الايجابي لوسائل الإعلام ، ولهذا فهم ينادون بتعميم العامية على هذه الوسائل كخطوة أولى لتعميمها على المدارس والجامعات كما يحدث شيء من ذلك لدى بعض المتعصبين في لبنان العربي .

الفصحى : والوجه السلبي من الإعلام

أوضحنا فيما سبق كيف تستطيع آليات الإعلام الحديثة ، وفي مقدمتها الفضائيات التي ظهرت منذ وقت قريب . أن تساعد على نشر اللغة العربية الفصحى وتقديم أصناف المعرفة بلسانها القويم ، كما ألمحنا إلى الإمكانات التي تجعل هذه الآليات قادرة على أن تربط اللغة العربية بحركة الواقع بكل ما يضطرب في جنباته من تناقضات وصراع صاخب ، ولكن هذه الوسائل - في غياب التصور القومي المشترك ، وفي تجاهل التخطيط العلمي - تؤدي إلى العشوائية وتفضي إلى الانحراف بوظيفة الإعلام بعامة وتجعل منه أداة حادة تطعن الأمة والعربية الفصحى في الصميم .

ويتجلى المشكل الإعلامي بوضوح في غياب أي نص صريح للوظيفة اللغوية التي ينبغي على وسائل الإعلام المختلفة أداءها بإتقان ، ثم في عدم التوفيق في اختيار الكفاءات الإذاعية من العنصر الرجالي والنسائي للعمل في هذه الوسائل وفي الفضائيات منها بخاصة ، لا سيما بعد أن اتسعت هذه الأخيرة واصبح لكل قطر عربي فضائية أو أكثر . ولا شك أن عدداً من هذه الفضائيات نجحت في استقطاب بعض الكفاءات و أصبحت تقدم خدمة هائلة للثقافة وللغة العربية الاً ان غالبية الفضائيات تعجز أو لا تريد أو لا تشعر بأهمية العناية

باللغة العربية الفصحى ، فضلاً عن الاعتماد على هذه الآليات كجهاز إعلامي بمعناه الدعائي ولا شيء غير ذلك ، متناسين أنه بالاضافة إلى الدور الإعلامي الدعائي عليه أن يتحمل مسئولية المحافظة على الفصحى وحمايتها وتقديم الإرث الثقافي العربي المشترك الذي هو بلا أدنى مبالغة أعظم ارث ثقافي ورثه شعب على وجه الأرض ، وما المانع من تحول هذه الوسائل إلى أداة تعليمية وتثقيفية في وطن ثلاثة أرباع أبنائه أميون يسكنون الأرياف وأطراف المدن ؟ .

ومن الصعب تتبع أشكال الإساءة إلى الفصحى في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية بالتفصيل ، فقد صارت ميداناً فسيحاً لتشويه النطق والعبث بالتراكيب والتجاوز عن القواعد النحوية والصرفية ، فضلاً عن التوسع في استخدام اللهجات العامية من خلال الأعمال الدرامية وبعض البرامج الحوارية . وقد تنبه بعض المفكرين والقادة الإعلاميين إلى تلك المخاطر منذ وقت مبكر ، إلاَّ أن جهودهم الهادفة إلى التقليل من تلك السلبيات ذهبت أدراج الرياح ، نظراً لما سبقت الإشارة إليه من غياب التخطيط ، والاكتفاء بما تؤديه هذه الوسائل من دور إعلامي . وفي كتابه (هموم كاتب العصر) يشير الكاتب والإذاعي المعروف فاروق خور شيد إلى ما يسميه خطورة التهاون في استخدام الأجهزة الإعلامية للهجات ((وما يمكن أن يلعبه استعمال العاميات من هبوط في مستوى التلقي وفي مستوى الأجيال التي يفصلها استعمال الإذاعات للعاميات عن حسها القومي العربي الذي يجب أن يؤصَّل وينمَّى . ومنها أيضاً ما بدأت تحسه هذه الإذاعات من ضرورة قيامها كوسيلة إعلامية وحسب وإنما كأداة ثقافية في الدرجة الأولى لا تقل خطورتها عن الكتاب والصحيفة ... وضرورة قيامها بواجبها وبرسالتها في نشر الأدب ، بل وفي إبداعه على السواء .)) [٦]

وفي مكان آخر يشير الكاتب إلى خطورة الدور الذي كان الإعلام الخارجي (غير العربي) يلعبه في أثناء تنافس معسكري القوتين الأعظم واستخدام ذلك الإعلام الخارجي للهجات المحلية لكل مناطق العالم ومنها الوطن العربي ، وخطورة تلك الإذاعات – كما يقول – أنها ((لم تكن تحمل الفكر وحده وإنما تحمل الفلسفة الإعلامية التي تتحكم في الشكل الإذاعي أيضاً ، كما أنها تحرص على أن تجذب المستمع بكل الوسائل الممكنة وبصرف النظر عن اعتبارات قومية محلية ، أو قضايا تفرضها مراحل النمو التي تمر بها البلاد التي توجه إليها هذه الإذاعات ، وهدف هذه الإذاعات الموجه باللغات المحلية الدعائي يستتر وراء مهمتها الإعلامية غالباً ما تكون أكثر نجاحاً في الإذاعات المحلية للبلاد المستهدفة بهذه الإذاعات الموجهة)) [٧]

و لم يختلف الأمر كثيراً بعد سقوط أحد المعسكرين المتنافسين ، إذلا تزال أهداف المعسكر الآخر الباقي تواصل فرض سيطرتها ، وإذا كان تأثير الإذاعات الموجهة قد قل أو اختفى بالنسبة للوطن العربي ، فأن دور الفضائيات في تزايد ونمو ، وتتمثل خطورته في السيطرة شبه التامة على بعض الفضائيات التي تكاد تعتمد اعتماداً كلياً على أرشيفات الفضائيات الأجنبية وعلى ما تجود به هذه الأرشيفات من أفلام ومسلسلات تخضع لترجمات رديئة يختار المترجم الجاهل للغة العربية ما يحوله من تراكيب تتصادم مع العامية فضلاً عن تصادمها مع الفصحى. وتلوى عنق المفردات سواء أكانت أسماء أم أفعالا على نحو يثير التقزز ومن ذلك – على سبيل المثال – السؤال الذي يتكرر في كل المسلسلات وفي كثير من الأفلام المترجمة أو " المدبلجة ": "أأنت أكيد ؟ " ويقصد به " أأنت متأكد ؟" وتكون الإجابة دائماً :" أنا أكيد !!" بدلاً عنه " أنا متأكد " وهي قطرة في بحر الأخطاء التي تتكرر في هذه الترجمات الهادفة إلى العبث بتكوين اللغة ومفرداتها . ولا جدال في أن تأثير الفضائيات يفوق كل أثر للإذاعات

فالفضائيات لا تكتفي بالصوت بل بالصوت والصورة الملونة وتحريك الشفاه وما يترتب على هذا التحريك للعبارات من تشويه لطريقة الأداء .

ونعود مرة أخرى إلى كتاب (هموم كاتب العصر) الذي أشار منذ وقت مبكر إلى خطورة فادحه ترتكبها وسائل الإعلام وتوجزها المقولة العربية القديمة (فاقد الشيء لا يعطيه) وتتمثل في سوء اختيار القائمين على وسائل الإعلام من أشخاص ابتعدوا تدريجا عن منابع اللغة العربية التي يجوز انهم تلقوا شيئا من دروسها في المدارس والجامعات ليقعوا بعد التخرج في أسر العامية ومنطقها المخالف للفصحى ، يقول فاروق خورشيد : (وهذه الوسائل في أيدي مهذبين متخصصين في حرفتهم الإعلامية بالدرجة الأولى ، وهم يتعلمون حقاً حتى نهايات التعليم الجامعي ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن يكون ارتباطهم بالثقافة روحاً ومعنى وعطاء ارتباطا عضوياً كاملاً .. فالمسألة بالنسبة لهم مسألة وظيفة بالدرجة الأولى ، وهم يقومون – في أغلب الأحيان – على خدمة العمل الثقافي كما يقومون سواءً بسواء على خدمة الطوائف والأقاليم أو السياسة الخارجية حسب ما يقرره رؤساؤهم المباشرون وطبقاً لظروف تعيينهم وتمرينهم ، قبل أي اعتبار آخر ، وهم بهذا – وفي أغلب الأحيان أيضا – ممثلون عاديون للثقافة ، كانت متابعتهم الثقافية حصيلة الدرس في المدارس والجامعات ، ثم حصيلة ما تقدم لهم نفس الأجهزة الإعلامية التي دفعتهم ظروف الوظيفة العشوائية إلى العمل بها . وليس في هذا اتهام لأحد ، أو إنقاص من شأن إنسان ، إنما المسألة أن الثقافة بعامة والأدب بخاصة أخطر على حياة الأمة العربية واكرم عليها من أي موظف في أحد الأجهزة العاملة بها على امتدادها من المحيط إلى الخليج لتزييف الحقيقة أو تنكرها أو تظل تتجاهلها وكأنها غير قائمة وموجودة وناشبة أظفارها في واقعنا الثقافي المعيش في كل مكان من هذا العالم العربي كله .)) [٨]

ومن هنا ، فأن موظفاً اعلامياً هذه صفاته وتلك مزاياه ، وهذه حدود ثقافته لا يمكن أن يفعل شيئا تجاه ما تعانيه العربية الفصحى من إساءات يومية على لسانه وعلى ألسنة زملائه من إذاعيين وإذاعيات ، توقفت معرفتهم باللغة العربية عند القواعد الأولية التي يتلقاها تلاميذ الابتدائية والإعدادية ثم تخلوا عنها بعد ذلك . والأسوأ من كل هذا أن تفرض بعض الإذاعات وبعض الفضائيات (العربية) على مذيعيها أن يقدموا البرامج ومادة البرامج والأخبار بالعامية المحلية لكل قطر ، وهي خطوة سيئة بدأت في لبنان العربي ومن المحتمل أن تترك آثارها الأسوأ على بعض الأقطار العربية ، فالاختيارات الرديئة – كما جرت العادة – سريعة العدوى ، وإذا حدث ذلك – لا سمح الله – ونشطت أساليب استخدام العاميات في الإذاعات العربية وفضائياتها فأن جزأ كبيراً وخطيراً مما كان يريده الغزاة في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين في طريقه إلى أن يتحقق ويأخذ طريقَهُ إلى التنفيذ وبأيد وعقول عربية هذه المره . ولن يستطيع الغيورون على الفصحى أن يشيروا بأصابعهم إلى وجود قوى أجنبية وراء مثل هذه الإجراءات المنافية لوحدة الأمة والقاصمة لهويتها وتدهور أسلوبها في الخطاب الثقافي والإبداعي ، فالعامية كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد ((هي لغة الجهل وليست بلغة الثقافة أو بلغة اليسار .. ومن الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية التي لا جمال لها ولا طلاوة ، وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى أو يعبرون بالعامية تعبيراً يزيد جمالها وتبدو عليه طلاوتها . فإذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ونستبقيه ونزيده ولا نخفف وطأة ذرة واحدة بتغليب عبارات الجهالة على العبارات التي تصاغ بها أراء المتعلمين والمهذبين [٩] . ولا يبعد أنه كلما زاد واقع الوعي ضموراً وتناقص عدد حملة المسئولية القومية زادت معاول الهدم قوة وتماديا في التخريب والارتحال نحو الانعزال والهبوط . والغريب ، بل الباعث على الخجل أن الصراع

لا يدور حول محاولة استعمال العامية في التلفاز وإنما يدور حول استعمال الفصحى في هذه الوسيلة كما تشير دراسة بالغة الأهمية تحت عنوان (العربية والقنوات الفضائية) ومما جاء فيها : ((يزعم الكثيرون أن العربية الفصحى لا تصلح للتلفزة بوجه عام ، والكثرة الكاثرة من هؤلاء تقف موقفاً فيه قدر من الاعتدال فلا يرون بأساً من استعمال الفصحى في نشرات الأخبار . ومن معارضي استعمال الفصحى نفر آخر يفرط في المبالغة ، فلا يرى مكاناً للفصحى في البث التلفزي على الاطلاق ، ولا يسمح هذا النفر للفصحى بالتسلل إلى حرم التلفزة الاَّ مكرهاً أو على مضض . ولم ينشأ هذا الموقف السلبي من استعمال العربية الفصحى مع نشوء التلفزة ، بل هو موقف قديم ومعروف وشامل ، لم يدع أي مجال من المجالات الثقافية والإعلامية دون أن يشمله بفقره لأستعمال الفصحى وبيان عيوبه والدعوة إلى إستعمال اللغة المحكية بدلاً منها)) [١٠] .

ولا أحسب أن (وعورة) أو صعوبة اللغة العربية تصلح حجة لهؤلاء لأننا إنما نكرر الدعوة لاستخدام الفصحى المعاصرة المتخلصة من الغرابة أو الصعوبة مما ينفر المستمع أو المشاهد أو القارئ المعاصر .

تصورات متواضعة للحل

لقد تأكد فيما سبق أن اللغة العربية الفصحى كانت ولا تزال – مع وسائل الإعلام المقروء منها والمسموع والمرئي – في حالة من الشد والجذب ، وهي الآن وبسبب هذا التنازع بين الإيجاب والسلب تقف عند مفترق طريقين أحدهما وهو الإيجابي يضع في اعتباره – دون تخطيط – أهمية المحافظة على الفصحى المعاصرة وضرورة نشرها وجعلها قادرة على الصمود في وجه المحاولات المختلفة للانتقاص منها ومن دورها الكبير الذي ينهض به قديماً وحديثاً . والطريق الآخر وهو السلبي المفروش بالأشواك والانحرافات الذي

ينسى السائرون عليه أن اللغة العربية كانت ـ على مدى قرون – لغة الحضارة في العالم وكان يستحيل على الدارس والمبدع أن يستوعبا ثقافة العصر بدونها ، لذلك فسيكون من الخطأ بل من الإثم أن نترك لغتنا نهباً للعوائق والسلبيات لأنه من الصعب على الأمة العربية أن تجد لها مكاناً في صدر الحضارة المعاصرة أو حتى في أطراف هذه الحضارة بعيداً عن لغتها وجسور ثقافتها ، لا سيما (وقد أثبتت اللغة العربية حيويتها ، وقدرتها على التطور والتجديد ، ومواكبة التطورات في مختلف العصور ، منذ استطاعت أن تخرج من نطاق الصحراء وتعبيراتها الضيقة إلى عالم الحضارة الواسع ، لتعبر عن كل ما جد في هذا العالم الجديد من علوم وفنون ومصطلحات ، ومن ثم فهي قادرة على مواكبة التطور الحديث في عصرنا الحاضر . وقد أصبحت اللغة العربية اليوم من جديد لغة عالمية كما كانت لغة عالمية منذ قرون مضت فهي اليوم لغة رسمية في المنظمات العالمية ، وبعض المنظمات الاقليمية مثل منظمة الوحدة الأفريقية)) [١١]

ومن المؤكد أن اللغة لا تختزل في مفرداتها المعاني والدلالات التي نحتاج إلى تداولها وحسب وإنما تختزل الخبرات الإنسانية التي توصل إليها الإنسان عبر العصور . كما أن كل تعبير حضاري يبدأ باللغة ومن اللغة ، فالقرآن الكريم وهو صوت السماء في إحاطته بالأشياء وفي تدوينه لصراع البشرية مع ذاتها ومع أعدائها كان لغة ناطقة ومفسرة وكان بوضوح هذه اللغة وإعجاز بنيتها وروعة صورها بداية تاريخ عظيم للعرب وللإنسانية جمعاء . واللغة في أساسها الروحي وفي خصائصها المكانية والزمانية جزء لا يتجزأ من تاريخ الأمة ، إن لم تكن هي التاريخ ذاته . ومن هنا فالعناية بها واجب رسمي وشعبي فردي وجماعي وعلى الإعلاميين المشغلين بها صباح مساء إدراك هذه الحقيقة قبل غيرهم من المواطنين. واللغة في مستوياتها السلمية أهم مقومات الإعلامي الناجح رجلاً كان أم امرأة، فاللغة أداة عمله الأولى ، بها يفكر وبها ينطق ، وعلى جناح كلماتها يسافر إلى

الأذهان والقلوب . ولا تصور لإصلاح الإعلام العربي وتجديد دوره في حماية اللغة قبل التصور لمستويات الإعلاميين واختيارهم من ذوي الكفاءات اللغوية . ومن حسن الحظ أن العرب يدخلون القرن الحادي والعشرين وقد أصبح لديهم عشرات الجامعات ومئات الكليات المتخصصة في اللغات ومنها عشرات الكليات المتخصصة في اللغة العربية على وجه الخصوص . وهو ما يعطي للقائمين على الإعلام العربي فرصة واسعة لاختيار الاصلح من بين خريجي هذه الكليات للعمل في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ، وسيكون ذلك بداية الحل المطلوب لاعداد الإعلاميين إعداداً لغوياً متيناً لتحسين أداء هذه الوسائل . ويبدو أن الأمر كان هكذا عندما بدأت الإذاعات العربية والصحافة العربية ثم اتسع الاحتياج واتسع معه الإهمال وشرع داء المحسوبيات والوساطات ينخر في نظام الاختيار فهبط المستوى وانتشرت الأخطاء وتعاظمت محنة الفصحى وتعالت الدعوات المشبوهة إلى التخلي عن قواعد النحو والاستفاضة في الحديث عن فكرة العفوية في الحوار والأداء الإذاعي ، والعفوية هنا بمعنى الانطلاق بلا رادع أو التزام في القواعد اللغوية في النطق ، وهي فكرة لا وجود لها في أية لغة محترمة من لغات العالم ، علماً بان العفوية في الإبداع تعني انثيال أفكار المبدع بتلقائية حية ، وتدفق فيض شحنات التعبير واثبة متألقة دونما تصنع أو افتعال لا أن تتخلى عن قواعد اللغة أو تعبث بخصائصها .

ومن التصورات الجديرة بوقفة المهتمين بالفصحى ما يقال من أن أستاذ اللغة العربية أنتقل من الفصل المدرسي إلى الإذاعة وإلى الشاشة الفضائية . وإذا كان مدرس اللغة يقوم بتدريس أعداد محدودة من التلاميذ أو الطلاب فإن أستاذ الوسيلة الإعلامية المسموعة والمقروءة ، هو أستاذ غير مباشر يقوم بتدريس الملايين . وقد ثبت من خلال استبيان قامت به مجموعة من طلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة صنعاء أن عدداً من المشاهدين الذين تم استطلاع

آرائهم يقلدون المذيع التلفزيوني ويحاكونه في نبرات صوته وأسلوبه في نطق الكلمات ، لذلك ولكي يتم وضع حد للأثام التي تقترفها هذه الوسائل في حق العربية الفصحى يقتضي الأمر أن تختار المحطات مذيعيها بدقة وعناية ووفقا لمواصفات لا تقل أهمية عن تلك التي كان يتم بموجبها اختيار مدرس اللغة العربية في المدارس المتوسط والثانوية على أقل تقدير وأن يراعى عند اختيار مذيع أو مذيعة الفضائية أن يكون أو تكون له أولها شخصية تفرض احترامها وتأثيرها على المشاهدين أثناء قراءتها للنصوص أو وهما يجريان حواراً أو يتحدثان من أحد المواقع خارج المحطة .

والضرورة تقتضي دعماً للدور الذي يمكن للإعلام أن يقوم به للعناية بالعربية الفصحى وفي إثبات قدرتها على استيعاب العلوم المعاصرة ورد الاتهامات التي تزعم أن هذه اللغة غير قابلة لأن تكون أداة المعرفة الجديدة . في حين أن تاريخ هذه اللغة وحاضرها يدحضان كل هذه الاتهامات والتخرصات . والسؤال هو : كيف استطاعت لغات أوروبا الغربية وقد كانت إلى قبل قرنين لغات فقيرة تستجدي مفرداتها ومصطلحاتها من اللغات الأخرى ومنها اللغة العربية التي أمدت اللغة الإنجليزية وأخواتها بآلاف المفردات ، كيف استطاعت تلك اللغات الأوروبية ولغات كانت ميتة ومنقرضة إلى ما قبل قرن واحد أن تأخذ مكانتها بين اللغات المعاصرة ولا تستطيع اللغة العربية أن تفعل ذلك ؟! وإذا كانت الطفرة الإعلامية العالمية قد وصلت ذروتها في نظام الإنترنت فان العربية الفصحى استطاعت في وقت قصير أن تحقق وجودها في صميم هذه التقنيات وأن تؤكد قدرتها في أن تكون أداة التخاطب والتواصل والتعليم والثقافة عبر كل الآليات ، بل يمكن للقيمين على الإعلام العربي والحكومات ووزاراتها المعنية ومؤسساتها أن تستثمر اللغة العربية كأية سلعة اقتصادية تستفيد منها في التنمية ، وذلك ما تشير إليه أحدث الدراسات حول اللغة والاقتصاد ،

فقيمة اللغة كما يقول مؤلف كتاب (اللغة والاقتصاد) : " يحددها عدد من العوامل التي يساهم كل منها لا في جعل اللغة وسيلة فحسب ، بل في جعلها أيضاً عنصراً من عناصر العمليات الاقتصادية " [١٢] ، مشيراً إلى ما يمكن أن يدره تدريسها من عوائد ، وما يمنحه وجودها الحيوي كلغة أم من استقرار وتوحيد مطلوبين لإنجاز التنمية الاقتصادية وأداء المهام بدقة ووعي واقتدار لا يمكن بدون الحفاظ على اللغة أن تتم بشكل مرضٍ ومفيد ..

لكننا للأسف نجد أنفسنا في أقطار وطننا العربي نستهين بلغتنا ، ولا نرى للعناية بها وتطويرها أية حسابات في موازنات الحكومات التي – على العكس من ذلك – تبدد ما يدفعه أفراد الشعب في برامجها الخاصة دون أن تلتفت إلى العناية باللغة وترصد لها ما تستحق من دعم .. متوهمة أن تلك مهمة (روحية) ينجزها أفراد الشعب مع ذواتهم دون إنفاق .. ناسية أن الباحثين يربطون بين (تخلف لغات بلدان العالم الثالث) و (التخلف الاقتصادي) مادامت هذه اللغات (لا تستطيع أن ترفع درجة وحدتها الوطنية) [١٣] .

هنا سنتوقف لنضع أمام أنفسنا جميعاً سؤالاً مباشراً نعتقد أنّ الاجابة عليه تصلح مدخلاً لمعالجة الأزمة التي جهد البحث في توضيحها ، والسؤال هو : هل توفر في ضمير القائمين على الإعلام وشعورهم الحق إحساس بأهمية اللغة وسيطاً للتفكير والتعبير والوحدة القومية والتنمية ؟ وماذا قدموا عبر برامجهم لتأكيد هذه الحقيقة التي تمس وجود الأمة العربية وهويتها في زمن التآمر الصريح على وجودها وهويتها ؟

ولا بأس في الأخير من أن نشير إلى ظاهرة لا تقل خطراً وضرراً على العربية وهي الظاهرة المتمثلة في غياب وعي المواطن العربي الناتج عن قصور الإعلام ، بأهمية لغته وصمته المخزي على الضيم الذي يلحق بها في اللافتات الأجنبية المنصوبة في الشوارع والأسواق والتي تشعرنا – صباح مساء – وكأننا في مدن

غير عربية ، أو كأن العربية عجزت عن توفير الأسماء والاشارات .. ولا يوحي هذا الصنيع القبيح إلا بالمهانة والعجز والخذلان .

هوامش :

١- د. زكي رابح عمامره : المجلة العربية للعلوم الإنسانية : ص ١١، العدد ٢١،شتاء ١٩٨٦م .

٢- عثمان سعدي : الامازيغ عرب عاربه : ص ٢٢

٣- مجلة الكتب وجهات نظر : ٥٠ ، العدد ٢١ ، اكتوبر ٢٠٠٠م .

٤- الدكتور مرزوق بن حفيتان : الفصحى ونظرية الفكر العامي ، ص ١٤٦ .

٥- المرجع نفسه : ص ١٦١ .

٦- فاروق خورشيد : هموم كاتب العصر ، ص ١٤٤ .

٧- المرجع نفسه :ص ١٥٧ .

٨- المرجع نفسه : ص ٢٢٦.

٩- عباس محمود العقاد : يسألونك ، ص ٥٠ .

١٠- مجلة متابعات إعلامية : ص ٩٣ ، العدد ٤٣ أبريل ١٩٩٩م .

١١- د. زكي رابح عمامره : المجلة العربية للعلوم الإنسانية ص ٩ .

١٢- فلوريان كولماس : اللغة والاقتصاد ، ترجمة : د.أحمد عوض ، عالم المعرفة – نوفمبر ٢٠٠٠م ، ص ١١٧ .

١٣- المرجع نفسه : ص ٦٩ .